روح العبث في الجمهور

نقدم إلى الطفل لعبة فيظل يلعب بها ساعة أو بعض الساعة ثم نراه يكسرها أو يفككها أو يمزقها ، ويبدأ يتأمل فى قطعها المكسرة أو المفككة أو الممزقة . فاذا أتم هـذه العملية انصرف الى لعبة أخرى، ثم لا يلبث أن يفعل بها ما فعـل بالأولى وهكذا . وقد أجمع علماء التربية والنفس على أنها هى غريزة حب الاطلاع التى تدفع الطفـل الى هذا العبث . فهو يتعرف الدنيا فى هذه اللعب ، ويحاول أن يعرف حقائقها وأسرار تركيبها وهو بعد خلو من المعرفة والتجربة ، مبهور بهذه الطرائف الجديدة على حواسه وتفكيره .

وواجب المشرفين على تربية الطفل أن ينظموا فيه هذه الغريزة وأن يوجهوها توجيها صالحا الى المعرفة والبحث تمهيدا لتمكينه فيا بعـد من الكشف والاختراع والتنقيب عن الحقائق والمواد النافعة لبنى الإنسان .

والغريزة سلاح ذوحدين ، واهمالها أو إهمال توجيهها يؤدى الى أن تصبح ميول الطفل وسائل للعبث والتحطيم والإفساد والتخريب . ثم إن بقاءها فى الكبر على ما كانت عليـه فى عهد الطفولة، معناه أن الرجل لم ينتفع بالسنين التى انقضت من حياته، ومعنـاه أيضا أن جسم الرجل الكبير لا يزال يحمل عقـل الطفل الصغير ، مع فارق واحد هو أن هـذا العبث محبوب ومقبول من الطفل الصـغير لأنه أداء لوظيفة من وظائف الطفولة ، ولكنه ثقيل مستقبح من الشاب الكبير أو الرجل الذى تنقصه براءة الأطفال .

ونحن نشاهد فى طوائف من جمهورنا المصرى هذه الروح — روح العبث — متفشية إلى درجة لا تحوج الباحث إلا إلى النظر ليرى ويدرك ويفهم . وكثيرا ما يتخذ هذا العبث شكل الإيذاء والتخريب لمنشآت عامة أو خاصة ينتفع بهـا هذا الجمهور كله، وفى هذه الحالة يكون من واجبه أن يحافظ عليها، أو ينتفع بهـا أصحابها، وفى هذه الحالة أيضا يقضى احترام الملكية الخاصة بعدم المساس بها .

ويصعب علينا بطبيعة الحال تتبع مظاهر هـذا العبث والإيذاء . ولكنى أضرب لها بعض الأمثلة البارزة التى تقع بيننا كل يوم وتمر كأنها جزء من حياتنا اليومية المعتادة :

كلنا نذكر تلك المظاهرات الهائجة الصاخبة التى شهدتها العاصمة والاسكندرية وغيرهما من المدن الكبرى فى مصر — تلك المظاهرات التى كانت تؤلف وتسير فى الشوارع لمناسبة احتفال زعيم أو سقوط إحدى الوزارات أو الغضب على وزارة معينة . يومئذ كانت مظاهر

غضب الجمهور تتجلى فى تحطيم المصابيح وتهشيم أعمدة النور وتقليع الأشجار وتكسير واجهات المحال التجارية وفى تخليع قضبان السكك الحديدية وتقليع أسلاك التلغراف والتليفون واحراق صناديق البريد .

ولقد يسأل الإنسان نفسه ما دخل المصابيح التى تهدى الناس إلى السير فى الظلام ، وما ذنب أشجار مصلحة التنظيم التى توفر لنا الظل فى الصيف وتنقى الهواء فى الهجير، وما دخل أو ذنب المرافق الأخرى التى ذكرت بعضها ؟ ما دخلها وما ذنبها فى اعتقال الزعيم أو فى سقوط الوزارة المحبوبة أو فى قيام الوزارة المكروهة ؟

ولكننا نغالط أنفسنا ونقول : هذه طبيعة الجماهير الغاضبة ، والجماهير إذا غضبت لا تفكر ولا تزن حركاتها بميزان العقل ، وليس أمامها متسع من الوقت تتدبر فيه سخافة عملها وضرر النتائج التى تترتب عليه .

لكن الشيء المدهش المحير هو أن هذه الطوائف من الجمهور إذا فرحت وابتهجت بسبب اطلاق سراح الزعيم الذى كان مقبوضا عليه ، أو قيام الوزارة التى تريدها ، أو زوال السبب الذى أغضبها أول الأمر ، وأرادت أن تعبر عن هذا الفرح والابتهاج فى مظاهرات شعبية ، كانت هذه المرافق العامة والخاصة هى أيضا نفس الضحية ، وكانت هى أيضا التى تؤدى ثمن الفرح والابتهاج . فالمصابيح تكسر والأعمدة تحطم والقضبان تخلع والأشجار تقلع وصناديق البريد تحرق وألواح الزجاج تهشم، فلا فرق مطلقا بين مظاهر فرحنا ومظاهر غضبنا مع وجود الفارق العظيم بين الدوافع الى هذه المظاهر . فى كلتا الحالتين تحطيم وتخريب وتدمير كأننا مجانين ، إذا غضبنا مزقنا ملابسنا ، وإذا سررنا مزقناها أيضا .

هذه عقلية شاهدناها فى بعض طوائف من الجمهور، ولا أريد أن أصفها الوصف الذى تستحقه، ولا أن أسميها الاسم الذى ينطبق عليها . وحسبى أن أعود فأقول إنها روح العبث المتفشية فى تلك الطوائف .

هذه واحدة ، وعندى غيرها كثير .

والعبث بالمرافق العامة عند بعض أفراد الجمهور عمل لا لوم عليه من الضمير ولا من المجتمع ، لقد تحدثت عن المظاهرات الشعبية وما يصحبها كأنه من لوازمها من أنواع التخريب والتدمير والتهشيم . وقد يكون فى ثورة الغضب أو فى نشوة الابتهاج ما يفسره وان كان لا يبرره . ولكن مثل هذا وأكثر منه يقع من الصبيان والجهال وهم على أتم ما يكونون هدوءا وانبساطا . فوضع الأحجار على السكك الحديدية ودق المسامير الغليظة فى قضبان الترام وحشو تجويفات هذه القضبان بالحديد أو المواد الصلبة ، كل هذا يتم عندنا بغاية البساطة

ترقبا للكوارث المسلية التى تقع من جراء ذلك ، وتهيا بالمنظر المبهج اللطيف حين يخرج القطار عن الخط ، أو تنقلب مركبات الترام على من فيها .

وما الرأى فى أولئك الصبية الذين يتسلح كل منهم بمسمار طويل ويكلف نفسه مشقة البحث عن سيارة غفل عنها سائقها أو دراجة غاب عنها صاحبها ، فيخرج المسمار من جيبه ويغرسه بسرعة ولباقة ومهارة فى العجلة ، حتى اذا ما تأكد أنها خومت تماما وفرغ ما كان فيها من الهواء ، افترت شفتاه عن ابتسامة تدل على الرضى والارتياح ، وانصرف يبحث عن غيرها ليداعب سائق السيارة أو صاحب الدراجة هذه المداعبة الفكهة الظريفة التى تعكر صفوه ساعة ، أو تكلفه ريالا أو أكثر من الريال .

وظاهرة أخرى خطيرة : فقد وضعت شركة ڤورنكرفت " طقاطيق " للسجاير فى قسم الدرجة الأولى من عرباتها ولكن بعد أيام اختفت هذه " الطقاطيق " !

هذه ظاهرة غريبة وخطيرة لأنها تمس خلق الأمانة فى الجمهور ، وتدمغه بتهمة شائنة فى أخلاقه تؤذى المجتمع المصرى كما تؤذى أفراده . ولست أتمالك من أن أحس عرق الخجل يتصبب من جبينى عند ما أقارن هذه الحالة بما رأيته فى بلاد الدانمرك : هناك يترك بائع الصحف كشكه الصغير و يذهب الى حيث يشاء تاركا صحفه ومجلاته والى جانبها صندوق صغير مثقوب " حصالة " فيأتى الشارى و يختار الجريدة أو المجلة التى يريدها و يضع الثمن فى الصندوق الصغير وينصرف .

وفى كل متنزه من المتنزهات العامة التى تنشئها مصلحة التنظيم أو التى تنشئها البلديات ليستمتع بها من لا حدائق فى بيوتهم ، ومن تقوم هذه المتنزهات لهم مقام الرئة يتنفسون بها و يستنشقون الهواء النقى منها ، فى كل متنزه من المتنزهات تجد لافتات كتب عليها " ممنوع قطف الأزهار " أو " ممنوع المشى على الحشائش " . و بالرغم من أن هذه اللافتات تشهد بتأخرنا فى المدنية و بأننا فى حاجة دائمة الى التنبيه والتحذير ، فهى لا تكفى فى ردع الجمهور عن أن يعبث بالأعشاب والأزهار ، وعن أن ينتهز غفلة الحارس ليتلف أو ليقطف منها ما يشاء .

وهذه حالة ذوقية وعقلية غريبة نخجل منها أيضا عندما نقارنها بحالة الجمهور الأوربى . فما دخلت متنزها عاما فى مدينة جنيف بسويسرا الا وجدت على مدخله لوحة كتبت عليها هذه العبارة : " هذا المتنزه العام ملك للجمهور فهو تحت حراسته " ومن ثم فالجمهور نفسه هو الذى يقوم فى تلك المتنزهات مقام الحراس والخفراء عندنا . فيا لله ما أعظم الفرق وما أبعده !

و بعد فأنا أفهم العبث المفيد أو الشر الذى يقصد منه الى شىء معين . أما العبث لعبث والشر حبا فى الشر ، فهذا لا أفهمه .

لعائلتى مدفن بين مقابر الامام الشافعى ، وقد وضعت على بابه مصباحين كهربائيين ينيران الطريق للداخل والخارج ، وكانا قبل عهد الظلام الحالى ينيران الشارع للسابلة .

فماذا جنى هذان المصباحان حتى وجدا من يرميهما بالطوب فيحطمهما ؟ كنت أفهم لو أن لصا سرقهما ليبيعهما، أو اقتلعهما لينتفع بهما فى بيته. ولكن كسرهما ؟ ما سببه وما الغرض منه ؟ سيقول البعض شقاوة أولاد . وهذا صحيح . ولكنها شقاوة تنم على روح خبيثة يجب أن تهذب جهد الامكان .

أعجب من هذا وأغرب بل أدهى وأمر أولئك الذين يسرقون صفارات الإنذار وأولئك الذين يتلفونها ! هذه الصفارات جعلت لتحذير الناس من الغارات الجوية ولم تجعل لغير ذلك . وأنا أستحلف الإنس والجن وعفاريت السماء والأرض أن ينبؤنى ما فائدة صفارات الانذار لمن يسرقها ؟ هل يريد أن يجعل من نفسه مصلحة وقاية أهلية الى جانب مصلحة الوقاية الحكومية ؟ هل يريد مداعبة الناس باطلاق هذه الصفارة فى أوقات معينة ليلهو بذعرهم واضطرابهم ؟ هل هى لعبة سهلة الاستعمال يقدمها الى ابنه الصغير ليفرح بها؟ هل يظن أنه يستطيع أن يعرضها أو يعرض بعض قطعها فى السوق لبيعها ؟ كلا ! إذن فلماذا يسرقها ؟ المسألة مسألة مزاج، ولكنه مزاج عجيب على كل حال .

وأكياس الرمل التى وضعت لحماية المساكن والسكان من فعل القنابل المتفجرة ، لماذا يشقها الجمهور بالسكين و يسكب رملها على الأرض فتنتفى الغاية الانسانية منها وتملأ أفاريز الشوارع بالرمل والأوساخ ؟ أليس هذا عبثا لا يصدر عن عاقل يقدر المسئوليات والنتائج ؟

ولو أن عدوا للمصريين فعل هذا ليعرضهم لأخطار القنابل لفهمت ، ولكن ما الرأى والفاعلون مصريون لا يضمرون لأنفسهم سوءا ، ولا هم يكسبون من فعلهم هذا شيئا ؟

وفى المدن شركات للاعلانات تقوم بلصقها على بعض الجدران وعلى لوحات خاصة، وهى تتقاضى على هذا أجرا من المعلن عنهم ، ومن حق هؤلاء أن يستفيدوا من الاعلانات، ومن حق الجمهور أيضا أن يستفيد منها . ولكن الصبية، بل الكبار أحيانا، يمرون بهذه الاعلانات فيتناولون طرفها بأصابعهم و ينزعونها من أماكنها و يلقون بها على الأرض ، و بذلك يحرمون المعلنين والمعلن اليهم ثمرة الاعلان ، ثم يوسخون الطريق العام بالأوراق الممزقة فى عبث لا لون له ولا طعم سوى ما يدل عليه من روح العبث والاستهتار بحقوق الغير .

وعلى ذكر الأوراق المهملة والممزقة ، نلاحظ أن مصلحة التنظيم قد أعدت سلالا للمهملات معلقة فى أعمدة النور والترام ليلقى فيها المارة أوراقهم المهملة أو علب السجاير والكبريت الفارغة . ولكن الجمهور لا يريد أن يترفع بسبب وجود هذه السلال ، ولا يعنيه منظر الشارع النظيف أو الشارع القذر ، فهو يترك السلال وشأنها و يرمى مهملاته على الأرض فى الطريق العام . وكثيرا ماتكون المسافة التى تفصله عن السلة مترا أو بعض متر .

ولا عجب بعد هذا أن نرى الخدم يتركون صندوق القمامات و يلقون الفضلات على قارعة الطريق غير حاسبين حسابا لمنظرها الكريه، ولا لتخمرها وتوالد الجراثيم القتالة فيها، ولا لما يترتب على كل ذلك من إيذاء الصحة العامة بسببها .

وعلى ذكر الاعلانات ألاحظ غرام بعض الناس بتخليد أسمائهم على أى شيء . و يظهر أننا ورثنا من أجدادنا الفراعنة عادة تخليد الاسم على جدران المعابد وأحجار الحيا كل، فصار بعضنا يعمد إلى هذا التخليد ولو على جدران مرحاض . ادخلوا أى مرحاض عام وانظروا إلى حيطانه فستجدون قائمة بأسماء متعددة كتبها أصحابها على هذه الحيطان، ولا أدرى لماذا كتبوها إلا أن يكون ذلك تشبها بأجدادنا العظام مع هذا الفرق الصغير وهو أنهم سجلوا أسماءهم على آيات الفن ودلائل المجد، وهذا البعض منا يريد تسجيلها على......على آيات الفن ودلائل المجد أيضا !

الجهل وسوء التربية و إهمال الإرشاد والاستهتار وفساد البيئة وموت الضمير وانحطاط الذوق — كل ذلك هو السبب فى خلق الروح التى عددت بعض مظاهرها دون الاستقصاء عنها . ولكن لا بد من علاجها لأنها مظاهر كريهة تصمنا بوصمة الانحطاط والتأخر .

هذه الروح يجب أن تعالج فى المنزل مع الأبناء والخدم ، وفى المدرسة مع التلاميذ، وفى الطريق العام مع الجمهور والسابلة، و بالقانون بعد ذلك كله ولو فى الطور الأول حتى تصبح العادات الحسنة طبيعة متأصلة .

شفقة الاباء

يكاد صفح الوالد يسبق ذنب الولد .

شوقى